حاجى بابا فى انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

مقدمة المؤلف

يا قارئى العزيز :

لو أنك قرأت روايتى «حاجى بابا فى اصفهان» لوجدتنى فيها قد عاهدت القراء على ألاّ أعود إلى الكتابة مالم أجد تشجيعاً . فإن وجدتُ هذا التشجيع وصفت له حياة « حاجى بابا » بعد سفره إلى انكلترا سكرتيراً للسفارة الفارسية

هذا ما عاهدت عليه . ولكننى بهذا العهد وضعت نفسى أمام مشكلة لا أعرف كيف يكون حلها لأنى والحق أقول لا أعرف ما هو التشجيع ، وإنما هى كلمة تورطت فيها . فإذا كان التشجيع هو ثناء الصحف فإن الأكاذيب لا تشجع ؛ وإن كانت إشارة المجلات فهى لا تتناول الكتب وإنما تتلمس من عنواتها موضوعات تكتب عنها وليس لها بالكتب علاقة ؛ وإن كان التشجيع من القراء فإنى أعترف لك أن معظم القراء فى انكلترا يشترون الكتب ولا يقرأونها ، والطبعة الأولى من كل كتاب ستباع ، صالحاً كان أو غير صالح . ولا يستطيع المؤلف أن يعرف أهل نجح كتابه أم لم ينجح ، ولو أن آلافاً من النسخ قد بيعت منه

ولما كانت هذه هى الحالة فانى كما يقول «حاجى بابا» وضعت ذراعى البلادة على صدر الاهمال ولم أتمم القصة . بل عنيت أن أقول إنى لم أترجمها إلى الانكليزية . لأن أصلها الفارسى كما تعلم موضوع بقلم حاجى بابا . وإن لم توجد منه نسخة غير التى عندى ... ثم طرأت علىّ أعذار خاصة اضطررت معها إلى عبور المحيط إلى أمريكا . وهناك كدت أنسى كل شىء فى العالم القديم

ولما عدت إلى انكلترا وجدت خطاباً ورد علىّ من فارس من موظف كبير فيها ، فعادت إلى ذهنى الذكريات الآسيوية . ولما فضضت الكتاب وقرأته لم أتمالك نفسى من الصياح : « هذا هو التشجيع ! إن هذا الخطاب القصير أكثر تشجيعاً لى على الاستمرار فى كتاب « حاجى بابا » من أى مشجع آخر . وسأتلو عليك هذا الكتاب ثم أخبرك لماذا رأيته مشجعاً . وقد كان الكتاب باللغة الانكليزية وبهذا الأسلوب الغريب :

صديقى العزيز :

أنا غضبان عليك ، وليس غضبي بغير سبب . لماذا وضعت كتاب حاجى بابا يا سيدى ؟

الشاه غضبان عليك ، وقد حلفت له أنك لم تكتب هذه الأكاذيب ولكنه قال : بل كتب

كل الناس غضاب عليك . إن الكتاب كله أكاذيب فمن أخبرك بها يا سيدى ؟ لماذا لم تسألنى ؟ هذا سيئ جداً منك

تقول إن الشعب الفارسى قد يكون كذلك ولكن الشعب الفارسى لم يسىء إليك ، فلماذا تنعته

بتلك الصفات سواء أكانت فيه أم لم تكن فيه ؟ ولقد أرسل الشيخ عبد الرسول خطاباً طويلا إلى الشاه يذكر له فيه أنك تحدثت فى الكتاب عن مقتل زوجة الشاه ، فلما سألنى جلالته عن ذلك حلفت له أن الشيخ عبد الرسول رجل كذاب . ولقد علمت أنك أسميتنى فى كتابك باسم « ميرزا فيروز » وأنك طعنت فىّ . علمت ذلك وأنك وصفت كلامى بالسخف ، فمتى كان كلامى سخيفاً يا سيدي ؟ أنت تظن أن كتابك يدل على حذق ، ولكن الواقع أن كتاب حاجى بابا عمل فى نهاية الحماقة . وأعتقد أنك أسفت على تأليفه

الانكليز يقولون إنه كتاب عظيم ، ولكننى أري أنه ليس عظيماً . وأنا صديقك القديم فلا بد أن تكون حانقاً على جداً لمصارحتى إياك برأيى ، ولكنى مخلص فى صداقتى . وأرجوك أن تضع رواية أخري تمدح فيها الفارسيين ؛ وسيبرر كتابك هذا أمانى المكررة أمام الشاة بأنك لم تضع كتاب حاجى بابا

أرجو عدم المؤاخذة . فأنا لا أعرف كيف أنافق ، ولغتى دائماً هى اللغة البسيطة وأنا صديقك المخلص ... ولكن لماذا كتبت عنى ؟ الله أعلم !

حاشية :

« اشتريت منزلاً جديداً يا سيدى وأنا الآن أحسن كثيراً مما كنت تعرفني . ويقول الإنكليز إن أمريكا مملوءة بالفضة والذهب وإنك غنى جداً . وأنا أحب الزهور الانكليزية لأغرسها فى حديقة منزلى الجديد ، وقد أخذ الشاه كل أوانى الخزف التى كانت عندي ؛ وبما أنك كتبت سخافات كثيرة عن « ميرزا فيروز » فابعث إلىّ ببذور بعض الزهور لأنى دافعت عنك أمام الشاه وحلفت باطلاً ، وإذا أرسلت لى بعض الأصص الغالية كان ذلك جميلاً منك »

التوقيع

ولقد تسألنى أيها القارئ لماذا أجد التشجيع فى خطاب مثل هذا . ولقد تظن أنى كالرجل الذى أراد أن يعرض جواده للبيع فأخذ يصفه بأحسن صفات الخيل ، ولكن الجواد رمحه أمام المشترين فلم يخجل من ذلك بل قال إن جوادى يحب المداعبة

لكننى أؤكد أننى لست مثل هذا الرجل ، وأؤكد أن فى الخطاب تشجيعاً كثيراً . ذلك لأنه يدل على أن كتابى أثر تأثيراً كبيراً فى شعب حى كالشعب الفارسى . وقد يكون هذا التأثير حافزاً له على التفكير . وأنت إذا أصبت الفارسى فى كبريائه فإنك تصيبه فى أقدس شىء لديه . حاول أن تسخر من فارسى ثم انظر إلى حد يصل به الغضب إليه ، لكن التفكير يحيل تلك الحلة إلى دأب على محاولة الاصلاح . فإذا استطعت أن تبين للشعب الفارسى عيوبه فإنه لا يلبث أن يصلحها ويحيلها إلى محاسن ، بعكس الشعوب الخانعة التى تعرف أن بعض صفاتها معيب ولكنها ترضى بها على أنها كذلك ... ولقد حاولت فى الصحائف التالية أن أبين أوجه التناقض بين الفارسيين اليوم وبين الشعوب المتحضرة . وفى رأيى أن المواهب الطبيعية فى الفارسيين لا تنقص شيئاً عن مواهب أرقى الأمم ؛ فإحساسهم حى ، وذكاؤهم متوقد ، وأنفسهم عالية ، وهم أهل شجاعة ونخوة ، ولكنهم — على الرغم من كل هذه المحاسن — فى نهاية الجهل . فإذا وجدت فيهم حكومة صالحة تعنى بالتعليم صاروا كما كانوا فى وقت من الأوقات من أكبر الأمم . ولقد حرصت على محاكاة لغة صديقى فكتبت إليه الرد الآتى :

لندن فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٢٦

صديقى العزيز :

تسلمت خطابك وأرجو ألا بقصر الله ظلك . أما عن كتابى « حاجى بابا » فلماذا لم تقرأه يا سيدى قبل أن ترسل إلى خطابك ؟

إن الشيخ عبد الرسول كذاب كبير وغبى جداً ، ولكنك « ما شاء الله ! » ... ولكنك رجل ماهر ياسيدي . فأنت وزير وأنت تعرف القراءة والكتابة ياسيدى ، وأنت تقول إن كتاب «حاجى بابا » كله كذب . نعم كذب ، وكذلك كتاب « ألف ليلة وليلة » وجميع الكتب الروائية فى فارس وفى غيرها . لماذا تغضب على إذن يا سيدى ؟ تقول إن الشعب الفارسى لم يسئ إلىّ ... نعم فانهم لم يقتلونى ولم يعتدوا على دينى وهذا حسن ، ولكن هل هذا هو كل شىء بينى وبينهم ؟

وتقول : إنك صديقى وإنك كذبت على الشاه وحلفت على الكذب ، وهذا حسن جداً ياسيدى ؛ ولكنك قلت شيئاً غير لطيف : قلت : إن أمريكا مملوءة بالذهب والفضة وإنى من أجل ذلك يجب أن أكون غنياً . لماذا يا سيدى ؟ أيلزم بالضرورة أن تكون أنت غنياً لأن الشاه غنى ؟ هذا غير لطيف يا سيدى وأنت وزير كبير وعندك قصر جديد ، ولكنك مع كل حال فى حاجة إلى بذور للزهر لغرسها فى حديقتك فسأبعث إليك بها وبالأصص إذا ما حلفت مرة أخرى أمام الشاه من أجلى

أرجو الصفح فانى لا أعرف كيف أنافق ولكنى أتكلم فى صراحة . لماذا كتبت إلىّ هذا الخطاب وأنا صديقك القديم ؟ الله أعلم !

حاشية :

عندى الآن زوجة ياسيدى وعندى أولاد وأنت وزير كبير وعندك ذهب وفضة ، وبما أنك كتبت لى خطاباً سخيفاً وقلت : إنى أكذب فابعث إلىّ بذهب وفضة ؛ وإذا أرسلت لزوجتى وأولادى بعض شيلان كشمير كان ذلك جميلا

جيمز موير

عزمت بعد ذلك على إتمام القصة على لسان « حاجى بابا » أو بالحرى عزمت على ترجمة ما كتبه « حاجى بابا » باللغة الفارسية فى وصف إقامته فى انكلترا وحرصت على روحه وأسلوبه . ولدى القارئ صورة واضحة فى خطاب ميرزا فيروز تبين شخصيته ولكن هذه الصورة ستزيد وضوحاً بما سيعلم عنه فى أثناء القصة ، ولست متحيزاً للانكليز ولا مضطغناً على الفارسيين ؛ وسأكتفى ببيان أوجه التناقض على حقيقتها وللقارئ حكمه ، ولن أطيل إلا حيث تدعو الحاجة إلى ذلك لأن شر ما أخشاه ويخشاه الكاتب أن يراه القارئ مطيلاً مملاً ، وكل رجائى إليكم أيها القراء الأعزاء إن رأيتم أنى أطلت فى بعض المواقف أن تذكروا أنى مضطر إلى الاطالة

الفصل الأول

حاجى بابا يجمع الهدايا من اصفهان

أرسلنى الشاه إلى أصفهان مبعوثاً من قبله لأجمع من أهالى المدينة الهدايا التى سيبعث بها جلالته معى إلى إنكلترا بعد أن صدرت إرادته بتعيينى سكرتيراً فى لندن للسفارة التى تعين فيها فيروز خان سفيراً ووزيراً مفوضاً ومندوباً سامياً لجلالته

وأصفهان هذه هى مدينتى التى نشأت فيها ابن

حلاق وفارقتها فقيراً معدماً ولكنني أعود إليها الآن رجلاً عظيم الأهمية

دخلت شامخ الأنف أنظر فى كبرياء وعظمة إلى أهلها كأنهم تماثيل من الأحجار . ومن حسن حظى أن أمي وزوجها فقيه المكتب كانا قد بارحا المدينة ، وأقاما فى قرية بعيدة عند سفح الجبل . أما صديقي القديم «على محمد» بواب الخان الذى لو كان حياً لصحبنى فى كل مكان ولتعنى بمرافقته إيّاى من إظهار الكبرياء ، فانه قد مات عليه رحمة الله

وكنت أتجنب السير فى الطريق الذى كان فيه حانوت أبى الحلاق فى أيام طفولتى حتى لا يرانى أحد جيرانه القدماء . ولم أمر كذلك فى الطريق الذى كان فيه منزلنا القديم

وكان حاكم المدينة يجهل أصلى فاحترمني من أجل المهمة التى بعثت بها ولم ينقص من احترامه شيئاً . وكانت المهمة سامية جداً لأنى أمثل الشاه ولأنه خول لى أن آخذ ما أشاء من أى إنسان وأدرجه فى قائمة الهدايا . وكنت أقول في نفسى : « أنت سعيد يا درحاجى بابا » ولا بد أن يكون الكوكب الذى ولدت ساعة بلوغه الأوج هو أسعد كوكب فى السماء ، فان ذقون أهل أصفهان وأهل شيراز أصبحت كلها فى يدى ، ولى أن أختار أية لحية فأنتف من شعراتها ما أشاء . ولكن تجاربى الماضية جعلتنى أضع يدالحكمة على ظهر الاعتدال . ولا يفوتنى أن أذكر أن لقبى الرسمى أصبح « عالى الجاه » أى صاحب الجاه العالي . وهذا اللقب مطمح أنظار الفارسيين فلا يوجد فارسى لا يتمنى أن يناله ، ولكننى مع ذلك فضلت أن يلقبنى الناس باللقب السابق وهو « عالي الشأن » وهو لقبى قبل الحصول على رتبة « بك » وتعيينى سكرتيراً فى السفارة

وما زلت حريصاً على التأدب فى مخاطبة الناس فلا أقول لإنسان «أنت» بل «أقول أنتم» ولا أقول لزائرى « اجلس » بل أقول « أرجو أن تشرفنى بمجالستك » ومع أنى كنت راغباً فى ألا أغير هذه اللغة فإنى ما كنت أستطيع تغييرها لو أردت لأنى اعتدتها . ولأن الكلمات اللطيفة كانت أحلى في أذنى من الأنغام

وكان معى أمر من الشاه يبين حدود مهمتى . وفيه أن حاجى بابا لما هو معهود فيه من الحكمة وسداد الرأى قد كلف من قبلنا بجمع رؤوس من العبيد والإماء لإرسالها هدية منا إلى شاه بلاد الفرنجستان . وليكن هؤلاء العبيد والإماء ممتازين بصفات خاصة حاذقين فى مختلف الفنون أقوياء ليرى فيهم هذا الملك الكافر مثالاً حسناً من عبيدنا

وعهدنا إلى « حاجى بابا » بأن يجمع رؤوساً من الخيول العربية والتركمانية لإرسالها إلى شاه الفرنجستان أيضاً ليعجب رعاياه الكفار بما فى بلادنا مما لا نظير له عندهم ، وليكن فى جملة ذلك مهرة أصيلة لتلد فى بلاده سلالة من الخيول الشرقية ، ويكون ذلك برهاناً على حسن صداقتنا

وعلى « حاجى بابا » أن يجمع ما يليق بجاهنا الشاهاني ، ونحن ملك الملوك ، ما يستطيع جمعه من المنسوجات الحريرية ومن القطيفة ومن مصنوعات يزد وقاشان ما يدل على أنه لا يوجد فى العالم ذوق سليم مثل ذوق رعيتى ، ولكى ينسج عباد عيسى على منوال ما ننسجه نحن فيحفظوا لنا جميل تعليمهم . وليكن بعض تلك المنسوجات للرجال والبعض نسائياً ليكسو ملك الفرنجستان زوجاته ومحاظيه بما

لم يحلم بمثله . وليكن مع هذه الأقمشة بعض الأحجار الكريمة ومقدار وافر من الحناء والكحل والأقراط والأساور والدبابيس والمناطق والخواتم واللآلئ اللائقة بأن تهدى إلى ملك أجنبى من الملوك ؛ فلا تستعلوا شيئاً من هذه اللآلئ ولو أرسلتم كل ما فى البحرين

وعليه أن يجمع الزمرد والعقيق والزبرجد ليتعوذ ملك الفرنسجتان بالتحلى بذلك من كل عين شريرة ، وليجمع فوق ذلك كل ما اشتهرت به فارس من الدروع والسيوف ونماذج الخطوط الجميلة والصور والتماثيل ، والطلاسم التى تطرد الشياطين . وبالجملة كل ما يفرح به المهدى إليه ويليق بمكانة المهدى

الفصل الثانى

« حاجى بابا » يصف جمعه للهدايا

عرضت هذا التفويض على حاكم المدينة فوجم ولكنه لم يستطع أن ينطق بحرف . وحاكم المدينة هذا هو ابن وزير المالية ، وقد أدهشه أن يكلف بهذه المهمة أحد غيره وأن يكون التكليف من غير أبيه

ولما كان رئيس الوزارة عدواً لأبيه وله فقد ظن الحاكم أن هذه إهانة متعمدة . ولما قلت له إننا نريد البدء بالعمل قال : « كيف نتمكن من جمع كل هذا ؟ إن أهل المدينة فقراء ، والذى تطلبه لا يوجد فى مدينة واحدة من مدن العالم »

فقلت : « لو كان الرأى لى وحدى فإنى أقل من التراب . ولكن مى أمر الشاه وأمره يجب أن ينفذ بغير مناقشة »

قال الحاكم : « هذا ما لست أشك فيه يا « حاجى بابا » ولكن اصفهان ليست بلاد النوبة فكيف نأتى بالرقيق ؟ وليست مثل نجد فمن أين لنا بالجياد ؟ وكذلك لسنا فى بلاد البحرين فأين هى الجواهر ؟ ولسنا فى خراسان فكيف نحصل على الحرير ؟ »

لما سمعت هذا القول من الحاكم عرفت ما الذى يريده لأنى أعرف الفارسيين وأعرف كيف تنشأ المصاعب وما وسائل تذليلها بينهم . فهمست فى أذنه بأنى لست بالرجل الذى يريد الاستئثار بالنفع وأنى سأقاسمه ما يزيد على الحاجة . فما كدت أنطق بذلك حتى ابتسم وتلاشت المصاعب . وفى ساعات قلائل كان القصر مملوءاً بالعبيد والإماء والحرير والشيلان والسجاجيد ؛ وجاء التجار من كل مكان يقدمون لنا خاضعين أحسن ما عندهم

ولكثرة المعروض من الرقيق ، ولأنى عضو فى السفارة رأيت أن أختار ما ليس له شبيه فى مزاياه لأنى مسؤول عن روعة الهدية . فاخترت الجوارى من الشركسيات الموجودات فى أرقى بيوت اصفهان لتكون لهن قيمة فى حريم شاه الانكليز . وكان بينهن حبشية واحدة امتازت بخفة نومها ؛ وإذا نامت فإنها تبقى مفتوحة العينين ؛ وقلت إن الشاه الانكليزى سيسر بها سروراً كبيراً لأنها تنام عند بابه فتحميه من دسائس الحريم . وكان من مزاياها أيضاً أنها ليس لها غطيط فهى لا تزعجه فى نومه

وكان من بين الجوارى أيضاً واحدة تحسن الطهى حتى لقد سمعت أن الذى يتعود الأكل مما تطبخه يعيش ضعف العمر المعتاد . وهل يريد الملوك أكثر من التمتع بطول العمر مع جودة الأكل

أما العبيد فكان بينهم زنجى قوى جداً لا يغلبه أى إنسان فى المصارعة فهو يستطيع أن يحمل رجلاً

ويلتق به على مسافة طويلة كما يفعل غيره بسلعة خفيفة ، فهو يأكل كبشاً كاملاً فى الوجبة الواحدة

وأما إماء الحرم فقد اخترت منهن اللآلئ الساحرات العيون الوافيات الأجسام . ولما لم يكف من تتوافر فيهن شرائط الجمال فى أصفهان فقد جئت بأجمل الجميلات فى شيراز ، وجمعت بعد ذلك من الجواهر والثياب ومختلف الأصناف أحسن ما هو موجود فيها وعنيت عناية خاصة بالثياب والمجوهرات التى ستهدى للملكة الفرنجستان ؛ ومنها البراقع المحلاة بالذهب والحبرات وأقراط الأنف والكحل والأصباغ للشفتين والخدين والعنبر ليوضع منه على الخد شكل الخال

واخترت فتى جميلاً من الخصيان الشركسيين لتكون الملكة فى حراسته « أغا » وهو قوى ماكر لا تستطيع الملكة أن تفلت من رقابته سواء أكانت من الشياطين أم من الملائكة

وقبل عودتى إلى طهران اقتسمت مع الحاكم ما زاد على الحاجة ؛ وخصصت جانباً لأهديه إلى رئيس الوزارة وخبأت ما جملته من نصيبي بين أمتعتى وآليت ألا أطلع أحداً على هذا السر

الفصل الثالث

سفير انكلترا يعترضه على الهدايا

وصلت سالماً إلى العاصمة والهدايا محمولة على البغال والجوارى على الهوادج فوق ظهور الخيل والعبيد يمشون حول موكبي ، فقصدت توًّا إلى منزل رئيس الوزارة ، وفى أقل من لحظة صدر لى الإذن بمقابلته فقدمت له النصيب الذى استخلصته من الهدايا ، وأقسمت أنى لم أحتفظ لنفسى بشىء . ويعلم الله أنى كنت أضحك بهذا القول على لحيته . ثم عرضت عليه الهدايا التى جمعت لإرسالها لشاه الفرنجستان

فسُرَّ رئيس الوزارة وقال لى : أنت ياحاجى بابا جدير بالثقة ، ولكن ليس معنا الآن أحد فى هذا المكان وأريد أن أنبهك إلى أن « فيروز خان » الذى سيكون سفيراً ورئيساً لك يحسدك على قيامك بهذه المهمة التى كان يريد أن يكلفه الشاه بها لينفذها بنفسه أو ليرسل أحد أتباعه ، فاحذر من عداوته لك وأخبرنى بأعماله عند ما تصلون إلى الفرنجستان

وأخبرنى رئيس الوزارة أنه تحادث مع سفير انكلترا عن الغرض الذى أرسلت من أجله ، وأن هذا السفير المعين حديثاً أبدى رغبته فى رؤية الهدايا قبل إرسالها ، وقبل أن يكتب الخطابات التى سترسل على لسان الشاه ووزرائه إلى انكلتر ، لأنه ليس فى الحكومة الفارسية من يعرف اللغة الانكليزية ، كما قبل أن يأتى لنا بمترجم انكليزى يعرف اللغة الفارسية لكى يكون مترجماً للسفارة الفارسية فى لندن

دُعىَ السفير بعد عودتى إلى زيارة الشاه ليرى الهدايا ، وحضر هذه الحفلة « ميرزا فيروز » الذى تعين سفيراً ، وقد كان كلا السفيرين لا يعرف ما هي هذه الهدايا قبل أن تعرض عليهما

اجتمع الوزراء والسفيران فى « الديوان خانه » وهى قاعة الاستقبال فى قصر الشاه ، وقد زينت القاعة فى هذا اليوم كأحسن ما تكون الزينة وحليت النافورة بالأزهار وأديرت فكانت مياهها تتناثر على الزهر كالدموع على خدود الحسان . ثم أديرت الفواكه والمثلجات وأمرنى رئيس الوزارة بعرض الهدايا فجئت بالجوارى والعبيد وبالخصيان وعرضتهم

فوقف السفير الانكليزى مندهشاً وقال: «ماهؤلاء؟ إن الانجليز لا يقبلون الرقيق في بلادهم »

قال رئيس الوزارة فى هدوء : « ما هذا القول يا فخامة السفير ؟ أليس عندكم عبيد ؟ كيف إذن تقومون بالأعمال ؟ »

قال السفير : « إن كل من فى بلادنا أحرار وكل من يدخلها يصير حراً »

فقال رئيس الوزارة : « ولكن هذه الهدايا للشاه الانكليزى نفسه ؛ وإذا لم يكن مسموحاً فى بلادكم لأى فرد بامتلاك العبيد فلا يمكن أن يكون شاهكم كسائر الأفراد . من الذى يطبخ له ؟ ومن الذى يدخل معه الحمام ؟ ومن الذى يحرسه حين ينام ؟ أليس هذا من عمل الرقيق ؟ »

قال السفير : « ليس للملكنا الحق فى امتلاك الرقيق ، فهو فى ذلك كأى فرد من رعاياه ، وهو يستأجر من يخدمونه والملك نفسه من أشد الناس عداوة للرقيق فهو لا يكتفى بمنعه فى بلاده ولكنه يستعمل نفوذه وقوة دولته فى منعه من البلاد الأخرى »

فتح الوزير عينيه وفمه وقال وهو شديد الدهشة : « أظن النشوة لا تصل بكم إلى هذا الحد . كيف تمنعون الرقيق ، وكيف يعيش هؤلاء المساكين إذا حررناهم ؟ إنهم لا يستحسنون سعادة أكبر من بقائهم معنا . فاذا تركناهم فانهم يموتون جوعاً ، وهم أبناؤنا وأجزاء من عائلاتنا »

قال السفير الانكليزى: « ولكنكم تستطيعون قتلهم » فقال رئيس الوزارة : « أين هو الأحمق الذى يحرق منزله بيده ؟ كيف نقتلهم ونخسر ثمنهم؟»

قال السفير : « مهما تكن الحال فإنكم تستطيعون ضربهم ولامسئولية على أحدكم فى ذلك »

فقال رئيس الوزارة : « ومن الذي يمنعنا عن ضرب الخادم ولو لم يكن رقيقاً ؟ إن كل إنسان معرض للضرب ممن هو أكبر منه إلا جلالة الشاه حماه الله . فالشاه يضرب الوزير ، والوزير يضرب الموظف ، والموظف يضرب الناس »

ولما رأيت أن مجادلة السفير على هذه الطريقة لا تؤدى إلى إقناعه تلطفت وقلت له متواضعاً : « ولكنك يا فخامة السفير لم تعرف بعد مزايا هؤلاء الأرقاء ؛ فإحدى الجوارى تحرس باب الملك عند نومه حتى لا تخونه نساؤه الأخريات ، والأخرى تطيل عمره بجودة ما تطبخه »

فقال السفير : « إن الأحوال فى بلادنا تختلف عن الأحوال فى بلادكم ، فإن الشاه الانكليزى ينام هادئ البال كأى فرد من رعاياه ، ولا يخاف من الاعتداء عليه وهو نائم ، وهو يأكل من أى طعام ، ولا يخاف من أن يدس له السم فيه ، وهو يثق بطباخه كما يثق برئيس وزرائه »

قلت : « وهـذا الزنجي يا فخامة الوزير مثل « اسفانديار » فجسمه من النحاس وذراعاه من الحديد ، ولا شك أنكم لا ترفضونه فهو ضرورى جداً فى حاشية شاهكم »

فقال السفير : « إن عندنا مصارعين من جنسنا ، ولكنهم إذا سلبوا حريتهم فقدوا قوتهم . إننا لا نقبل الرقيق بحال من الأحوال »

عند ذلك هتفنا جميعاً : « هذا عجيب جداً ! » وانزعج ميرزا فيروز من احتمال سفره بلا هدايا . وقد كنا نعتقد أن نجاحنا فى لندن يتوقف على قيمة الهدية التي نهديها كما هي الحال عندنا

وقال الوزير : « وعلى كل حال فأظنكم لا

ترفضون هذا الخصي الشركسي فهو لا يقدر بثمن»
فقال السفير : « إنني لا أعرف مهمته فما هي ؟ »

قال الوزير : « إن للملك زوجات وجواريَ كثيرات وهن بالطبع في حاجة إلى مراقب أمين ، لأن المرأة لا تستطيع الخروج من المنزل إلا تحت مراقبة أحد من أتباع زوجها فالنساء غير مأمونات ولا محل للثقة بهن »

فأدهشنا السفير عند ما أجاب بقوله : « ليس للملك عندنا إلا زوجة واحدة وجميع الرعايا يراقبون حسن سلوكها لأنها ملكة وليست في حاجة إلى خصي »

صحنا جميعاً : « لا إله إلا الله ! هذا غريب جداً ! » وقال رئيس الوزارة : « وكيف يكون ملكا وله زوجة واحدة ؟ وما هي الفائدة إذن من كونه ملكا ؟ ما الذي يفعله شاهكم إذا ملّ من زوجته ؟ »

فقال السفير : « إن الجواب على هذه النقطة بعيد عن فهمكم لاختلاف عاداتنا وعاداتكم . إن المرأة عندنا مثل الرجل في حقوقها وفي احترامها وقد تولي الملك عندنا كثير من النساء »

فكر رئيس الوزارة ثم قال : « هذا غريب جداً ! إن عاداتنا تخالف عاداتكم مخالفة كبيرة فالنساء عندنا في حكم العدم ، ونحن لا نثق بهن ونعتقد أن المرأة لم تخلق إلا لقضاء حاجة الرجل ونحن لا نفهم خضوع الرجال لحكم المرأة إلا كما تفهمون خضوع النمور للنعاج »

وقال فيروز خان : « إذا لم يكن للشاه الانكليزي غير زوجة واحدة ، فلديه بلا شك نساء كثيرات لحفظ ثيابه وللرقص والغناء ولقص النوادر ولمراقبته عند نومه ولخدمة زوجته وتربية أولاده ، وكل هذا العدد من النساء في حاجة إلى خصي لأننا لا نفهم أن جميع النساء في بلادكم يختلفن عن نساء بلادنا فلا تكون لكم حاجة بمن يتجسس عليهن ... فقال السفير : « مهما بدا لكم غريباً فان هذا هو الواقع . وليس على نسائنا رقابة ، ومع كل ما للملك من السطوة فانه لا يستطيع إخضاع امرأة لرقابته أو منعها من الخروج من المنزل أو مقابلة الناس . ولو فعل ذلك لكان حكمه كحكم من يعاقب الغير بغير محاكمة ، وقوانيننا تمنع ذلك . ومن المستحيل أن يكون في بلادنا من يتجسس على المرأة لزوجها . ثم أريد أن أعرف من أين تأتون بهؤلاء الخصيان ؟ »

فقال رئيس الوزارة : هل تظن أننا نأتي بأناس يخلقون كذلك ؟ كلا فان كل موظف مغضوب عليه أو كل أسير حرب نفعل به كذلك »

انزعج السفير الانكليزي من هذا القول أيما إنزعاج وأصر على ألاّ يقبل الخصيان في بلاده

وكان الشاه يسمع ذلك ولا يتكلم ، وقد بدا على وجهه الغضب لرفض جانب من الهدايا . وفي ذلك مالا يدل على حسن النية ، لأننا نحن الفرس نرى رفض الهدية من أكبر علامات الاحتقار ، وهو بين الملوك من بوادر الحرب . لكن لما عرضنا على السفير الانكليزي قبول الجياد وافق وأبدى علائم الشكر والسرور . وكذلك قبل السيوف والدروع ومنها سيف « تيمورلنك » وآخر لنادرشاه وهو الذي كان معه لما فتح مدينة « دلهي » وخوذة جميلة للشاه اسماعيل ، وقميص طرز بآية من القرآن كان لمحمد شاه

قال الشاه للسفير الانكليزى : « اكتب لأخى ملك الانكليز بأن يضع القميص تحت ثيابه كلما خرج إلى الحرب فإنه يضمن له النصر فى كل موقعة »

وقبل السفير كذلك مع الشكر أن نبعث إلى ملكه بالمنسوجات الحريرية والشيلان والسجاجيد والجواهر والمصوغات والهدايا المرسلة باسم الملكة ؛ وقد ابتسم عند رؤيتها وقال إن جلالتها ستسر بما أهدى إليها وإن كان من المستحيل أن تلبس شيئاً من ذلك »

ولما تم الاتفاق على ما يرسل وما لا يرسل عاد السفير بعد شكره للشاه وتركنا نعرب عن دهشتنا لغرابة أهل البلاد التى يسكنها هؤلاء الفرنجة

الفصل الرابع

خطاب من كبيرة زوجات الشاه الى ملكة انكلترا

كان من أهم الأمور التى يجب قضاؤها قبل سفرنا أن نكتب خطابات إلى شاه الفرنجستان ووزرائه كالتي وصلت إلينا عندما جاء سفير انكلترا إلى طهران — الخطابات التى ترجمها لنا السفير ولكننا لم نعجب بانشائها ولا بخطها ، ويظهر أن الانكليز ليس عندهم ذوق فى الانشاء . ولقد أدهشنا وحيرنا شكل ختم به على غلاف الخطاب الانكليزى للشاه ، لأن عليه رسم رجل على ظهر جواد يقتل حيواناً مفترساً . ولقد جمعنا العلماء ليفسروا لنا هذا اللغز فكان جوابهم بالظن أن هذا الرسم يمثل بطل التاريخ الفارسى « رستم » يقتل الشيطان الأبيض ؛ ولكننا لما سألنا فيما بعد من أحد الفرنجة قال : إن هذا الرجل عظيم من كبار الدراويش الانكليز اسمه « القديس جورجيو » وأنه يقتل وحشاً يهاجم شاه الفرنجستان . وهذا الرسم معناه أن بلادهم آمنة . وقد كان مثل هذا الرسم على شريط من الحرير فى أسفل الخطاب الذي بداخل الغلاف ؛ وكان وضع هذا الخاتم فى أسفل الخطاب سبباً فى مناقشة حادة بين السفير الإنكليزى وبين رئيس الوزارة لأن الأخير رأي أن وضعه كذلك يعد اعترافاً من ملك الانكليز بأنه أصغر من شاهنا ملك الملوك . وقد ظهر لنا من هذه المناقشة أن هذا الملك يعتبر نفسه أكبر من كافة الملوك حتى الشاه الفارسى نفسه

ولما جاء دور الكلام على الخطاب الذى سنرسله إلى ملك الانكليز قال رئيس الوزارة : إننا سنضع خاتم الشاه فوق العنوان فرفض السفير ذلك ونحن رفضنا أن نضع الخاتم فى ذيل الخطاب ، ثم تم الاتفاق على أن يكون العنوان وخاتم الشاه فى سطر واحد

وأمر الشاه باحضار أكبر المنشئين وأكبر الكتاب لإنشاء الخطاب وتسطيره بخط جميل ، ثم يترجم السفير الانكليزى الخطاب ، وترسل الترجمة مع الأصل لجمال خطه . وقد اختار المنشئون لهذا الخطاب زهرات اللغة التى تروق ويصعب فهمها على الرجل العادى ، ولكن تتناقلها الأفواه لجمالها . ولست أتذكر من كل هذا الخطاب إلا الجملة الآتية

« عند ما تتعرض حديقة الأزهار التى أعوادها كلمات هذا الخطاب والتى روائحها معانيه ، ونسيمها الاخلاص المتجلى فيه — عندما تتعرض هذه الحديقة لنجمى عينيك المتألقين فى سماء وجهك ، وعندما يسطع عليها ضوء نفسك من هذين النجمين ، وعند ما تستنشق عبير هذا الاخلاص ، عند ذلك أتمنى أن

تكون على عرش الصحة متوجاً بالسعادة والرفاء »

هذه جمل من الخطاب البليغ . فكيف يفهم عقل الرجل العادى أن معنى هذه الكلمات هو : « عند ما يصل إليك خطابى أرجو أن تكون فى صحة جيدة »

بقى خطاب كبيرة زوجات الشاه إلى ملكة انكلترا رداً على خطابها . ولقد كانت هذه الملكة تجهل عوائدنا فلقبت زوجة الشاه بلقب ملكة إيران وأهدتها صورتها فى إطار محلى بالجواهر

وبالرغم من أن زوجة الشاه ذات نفوذ فى القصر فإنه ليس لها أقل نفوذ فى الدولة . وللشاه أن يقتلها ويأتى بغيرها دون أن يشعر بذلك أي إنسان . ولكنه كان من الضرورى على كل حال أن يصل إلى ملكة الفرنجستان رد على خطابها

وبعد أن حاول كتبة القصر أن يضعوا نص هذا الخطاب جيء بمنشيء الدولة لوضع الصيغة النهائية ، وهذا هو نص الخطاب :

« أدعو لجلالتك دعاء طاهراً كعرض مريم العذراء البريء من كل تهمة . وسلامى إليك كشهادة عيسى لأمه . وبعد فيا لؤلؤة الجمال المكنونة فى أصداف العظمة ، ويا كوكب العقل المتجلى فى سماء الحكمة ، أطال الله ظلك ، وأكد روابط المودة بين بلادنا وبلادك بحق جبريل عليه السلام ، وعطر علاقتنا بروائح الاخلاص

وقد كان تبادل السفراء سبباً فى فتح باب الصداقة على مصراعيه فلتغنّ بلابل الأقلام ، على أعواد الحب والوئام ، ولتنبت زهرات العطف على أغصان الصداقة والسلام » .

« البقية فى العدد الآتى » عبد اللطيف النشاء

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

ص

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧